

## رقعة الطبيعة التي لا تحتمل

بشار العيسى

رسام بشر تائمين في حقول شقائهم

فاروق يوسف  
كاتب عراقي



في متحف ويتني بنيويورك تذكرت حين وقفت أمام لوحة أرشيل غوركي التي تظهر فيها أمه جالسة فيما يقف إلى جانبها صبيا. تذكرت أنني رأيت قبل سنوات طويلة لوحة لبشار العيسى رسم فيها أمه. حدث ذلك في البحرين. شددتني إلى تلك اللوحة قدرة الرسام على أن يتخطى الحزن المباشر ليقبض على المعاني العظيمة التي تنطوي عليها ذكري الأم. كان ذلك هو ما جعلني مشدودا إلى لوحة غوركي زمنا طويلا قبل أن أراها مباشرة.

العيسى يخلق من خلال فننه انسجاما بين متناقضات لكي يخلص في النهاية إلى قدرة الفن على صناعة الأصل. ما من رسام سوري شغف بالطبيعة مثله لذلك لا تخلو لوحة من لوحاته من أثر لها. لقد شكلت الطبيعة خلفية لحياته التي عاشها في سوريا ويمكن النظر إليها أيضا بطريقة رمزية. غير أن كل ما كان يقع على تلك الخلفية له صلة بالآلم والعذاب والعزلة والغربة وكلها عناصر مستعارة من سيرته الشخصية وسرة شعبه.



**العلاقة بين البشر والطبيعة القائمة على الامتزاج تفتح أمام الرسام طرقا مختلفة لفهم الشقاء الإنساني، باعتباره نقیضا لحالة الفرح التي يعيشها الكائن البشري وهو ينهل بعذوبة من ينباع الأصلية للعدالة**

تمزج الطبيعة بكل مرحها بالتجربة الإنسانية بكل ما تنطوي عليه من ألم لتشكل نمط حياة وأسلوبا في التعبير الفني. ما كان العيسى حريصا عليه دائما إلا تنزلق به عاطفته الشخصية إلى مناطق تخرجه بعيدا عن قوة الفن ونبل المعاني التي يدعو إليها. لذلك يمكن القول إنه رغم الخسائر العظيمة التي نتجت عن وحشية الآخرين ظل حريصا على إنسانيته. كان من خلال ذلك السلوك يجبر عن حرصه على فننه. وإذا ما كان العيسى سياسيا بطريقة متشددة في حياته فإنه لم يكن كذلك في

فنه إلا إذا اعتبرنا التعاطف الإنساني نوعا من السياسة. بالنسبة إلى فإن العيسى رسام غنائي. فرغم أسلوبه الحديث فإن التفكير في مارك شغال يمكن أن يكون أسلوبا في فهم الطريقة التي يفكر من خلالها في الصورة. في بنائها على وجه التحديد.

### رسام القضايا الإنسانية

ما الذي يرسمه العيسى؟ يرسم بشرا وطبيعة. ليست الطبيعة هي الخلفية التي تتحرك أمامها جموع البشر. يميل العيسى أحيانا إلى أن يوزع كائناته بين ثنايا الطبيعة كما لو أنه يحاول أن يمزجهم بها. يجعلهم جزءا منها وهو هنا إنما يستعيد الأمكنة التي عاش طفولته وصابها فيها حيث كان الإنسان جزءا لا يتصل عن الطبيعة. أحيانا أخرى ينفرد بكائن وحده وهنا يرتفع منسوب الألم. فذلك الكائن الذي يقع عليه الاختيار ليكون موضوع اللوحة هو غالبا ما يكون انعكاسا لشبح مرّ في حياة الرسام بشكل عابر وترك أثرا هو أشبه بالجرح. ذلك كائن لا يُنسى. العلاقة بين البشر والطبيعة القائمة على الامتزاج تفتح أمام الرسام طرقا مختلفة لفهم الشقاء الإنساني باعتباره نقیضا لحالة الفرح التي يعيشها الكائن البشري وهو ينهل بعذوبة من ينباع الأصلية للعدالة. يمكنه من خلال الرسم أن يقول أشياء كثيرة عن ذلك التناقض لكن بشكل غير مباشر.

### الفن باعتباره الملجأ الأخير

ولد العيسى عام 1950 في قرية الغنامية في الشمال السوري. عام 1961 انتقل مع شقيقه إلى الدرياسة وهي قرية تقع على الحدود التركية وذلك من أجل الدراسة في مدرسة أرمنية. كان عليه أن يمشي 15 كيلومترا كل يوم خميس من أجل العودة إلى منزل عائلته. بعد سنوات قليلة اتجه إلى مدينة الحسكة للدراسة في كلية المعلمين، ثم بدأ دراسة التاريخ عن طريق المراسلة مع كلية الآداب بجامعة دمشق، وعمل في مجال التدريس، ويومها كان الفنان موزعا بين السياسة والرسم وكانا اكتشافين مزج من خلالهما ما هو جسدي بما هو روحي. في كل واحد منهما اكتشف قضية شخصية ولا يزال هذا الطابع هو ما يميز علاقته بهما حتى اللحظة. فهو حين يجادل في السياسة يظنه المرء حزبيا من الطراز الأول أما حين يرسم فإنه يخلق في ملكوت الجمال كما لو أنه كائن صاف.

### أسلوبه مزيج من شخصيته

وإذا ما عدنا إلى سيرته قبل رحيله من سوريا نراه بين عامي 1970 و1977 وهو ينتقل للتدريس بين 30 مدرسة بعد أن وضعت الأجهزة الأمنية عينها على نشاطه السياسي المعارض. فقد بدأ عام 1972 بعرض رسومه ثم سافر إلى بيروت ليعمل هناك في مجال النشر والتصميم الأغلفة لكبار الكتاب العرب والعالميين، ومن بعدها إلى باريس ليستقر ويعمل هناك كما أنه يكتب بروح الكتاب المحترفين. وقد أقام الفنان أكثر من أربعين معرضا لرسومه.

يقول "لا أدري متى بدأت الرسم، لكنني رأيتني أرسم وصار الرسم واحدا من ملاجئي التي أختبئ فيها أحلامي. لم أرسم التزاما بواجب مدرسي بل لامتلاك قدرة على صياغة فائقة وطاهرة لأحلامي. غير

أن من يعرف سيرة الفنان لا بد أن يغفر له القيام بذلك بالرغم من أن الرسام كان في حاجة إلى تلك الأوقات العزيرة.

العيسى يفكر بطريقة مختلفة. لقد أقام العشرات من المعارض الشخصية وتنتقل بلوحاته بين مدن العالم غير أنه كان مهوما بقضية شعبه بالرغم من أنه كان قد تعرض للملاحقة بسبب انتمائه العقائدي. كيفما قلبه، يظل العيسى عليك بوجهه السياسي. الكردي اليساري الذي يفكر بطريقة إنسانية. غير أن الفنان يظل أروع ما فيه من وجهة نظر محبي

فنه وأنا منهم. ذلك لأنه الذي سيقبني. رؤية لوحة من العيسى حدث لا يُنسى. سيكون علينا أن نفكر في الرقة والشفافية والتعاطف العاطفي قبل كل شيء. لقد رسم كائنات لا يمكن أن تغادر الذاكرة. يمكن أن نسميه بـ"خالق مناخات". أنت ترى رسومه فتسيطر عليك لغته. سيكون عليك أن تتحدث مثله وترى الطبيعة مثله وتود لو كانت لديه إمكانية الامتزاج بتلك الطبيعة مثله. خلق بشار العيسى أسلوبه في الرسم من المزيج العجائبي الذي انطوت عليه شخصيته.



**اللوحة لدى العيسى هي بناؤها بشكل أساس. وبناء اللوحة عنده كلاسيكي متين، فهو مقاتل عنيد على مستوى الشكل. أما المضمون فإنه أكثر سعة من أن يتم اختصاره**

